افتتاحية النهار

سمير عطاالله

موطن ماذا؟

1 ⇦ لذلك، بدا لبنان السياسي جميلاً وممكناً أيضاً. وعلى الورق بدت الدولة مقنعة، والنظام نموذجياً: تآلف طائفي وثقافي، وحرية مبهجة في السياسة والصحافة والفنون. وفي تلك اللغة السامقة التي كتب بها شيحا واتبعها المريدون والمفكرون، اصبح للبناني معالم "الأمير الصغير" وملامحه الطيبة. وقضت الاطروحة بتساوي الرعية أمام قانون واحد، فلا تابع ولا متبوع، ولا سفيه ولا مغرور. ففي لبنانه كان الخطاب بين السلطة والأمالي، أو بين الناس والناس، مستوى تقي الدين الصلح وفيليب تقلا وبشارة الخوري وحميد فرنجية وسائر الحرصاء على نبل الأداء السياسي وآداب التعبير.

استلهم شيحا وجيله ومريدوه من بعده، كبار المفكرين حول العالم، وبحث من أجل لوحته عن أعلى معاني الارضاء لكي يسد الطريق على المنكّدين والطفيليين وغلظاء القلوب.

ننعى الى حضرتكم عصر ميشال شيحا. ليس من اليوم. فالعمر لا ينتهي مرة واحدة. والخير مهما كان ضعيفاً يظل يصارع. ولكن آن لنا ان نقتنع بأنه لم يبق رمق في تلك الصيغة العبقرية بعدما صارت للبذاءة النفسية والخطابية حصانة الأدب وحماية المفكرين.

لكن الكاتبة دلال البزري ترفض الاستسلام لهذا الابداع في الشتم. تتطلع الى انتخاب ملكة جمال لبنان على أنه "واحة مقطوعة عن محيطها". ما هو محيطها؟

"أما الآن، فلبنان خسر كل موارده، بل أكثر من ذلك، أصبح موطن القبح، بلا منازع: ينابيعه جفّت، وكذلك آباره، وتيارات انهاره تجرف النفايات، وكهرباؤه بيد عصابات، طرقاته بلا طريق ولا رصيف، هواء مشبع بالمازوت وروائح النفايات القديمة والجديدة، وجلبة وثرثرات بلا طحين، يضيعان الأذن، وشواطئ قذرة تغص بالبكتيريا والأبقار النافقة، وواجهات بحرية مغلقة على النظر وعلى متوسطي الحال، استولى على شواطئها ومياهها مقاولون متنفذون، لكل واحد منهم حامي حمى في الاحزاب الحاكمة؛ وجبال يأكلها مقاولون آخرون، متنفذون أيضاً، وخَضار يزول ليحل محلّه الباطون الرمادي الهش والموحش، وتلوث ينال من العين، من الأذن، من الأنف... لبنان؟ البشاعة تسلّل إلى روحه ومعناه ايضاً، وأصلاً: كذب وجشع وممارات وفساد ينخر العظم، وابتزاز وريبة وتنافس على الغرائز، وتوسّع في البذاءة اللفظية والسلوكية، وكله على وتيرة رتيبة لا تنتهي. وكله من ادوات تدمير روح لبنان بالبشاعة، وهو سلاح دمار شامل لا يقل عن تسميته تمسُّخاً وفظاعة".

ما بين الصورة المأمولة التي رسمها شيحا، الجزء المتنور والمنير من اليمين، والصورة الفوتوغرافية التي تضعها أمامنا سيدة من اليسار المهزوم، يتضح مدى الدمار الذي لحق بالتجربة. لا أعرف ما هو النظام الذي يجب أن نبحث عنه. ربما لا شيء يمكن ان يصلح لنا. لا دستور يروّض تعدياتنا، ولا مصالحة تروّض نفوسنا، ولا تعاهد يضمن انماء التربص.

لا يمكن لبنان الكبير أن يستمر بقلوب صغيرة وارقام صغيرة وفوارق صغيرة. يجب ان نتأمل هذه الحقيقة ونصمت. هذا بلد لم يعد له علاقة بنفسه. وجمهورية تداعت عليها آفاق السنين فلم يعد لديها رابط بوطنها. ولم يعد شيء ينفع في نهايات هذا الزوال وانقضاءات ذلك الزمان.

وهذه ليست مسؤولية رجل، ولا حكومة، ولا عهد. هذه مسؤولية السلوك العام المنحرف الذي اعتبرناه امراً عادياً. مسؤولية المجتمع الذي ارتضى ان تكون عنده جامعة بين دكان وآخر، بعدما كان المنارة الجامعية في الشرق. وارتضى ان يحتل "تياره الوطني" وسطه التجاري بعدما كان مركز التجارة في الشرق. ويرتضي اليوم زوال صحافته بعدما كان مؤسس الصحافة في عموم الشرق.

ننعى عصر ميشال شيحا الذي كان في زمنه احد كبار المثقفين والأكثر اطلاعاً في الشرق. ومن عمق معرفته بأحوال الشعوب وآفاق الأمم، حاول أن يولّف لنا وطنا مرتاح البال. شتمناه، ثم قتلناه، ولن يمشي في جنازته أحد. لم نعد نلاحظ الفرق. تبلدنا على الفشل والضياع. تبلدنا على سماع الظواهر اللاأخلاقية. تخدرنا على إن الحقائب أهم من الرجال. حكومة لا ينتظرها أحد سوى أصحابها. لا فقير ولا صناعي ولا مستثمر ولا عاطل عن العمل. وطن من الخائفين على غدهم، المزعزعين في يومهم. وذروة الفصاحة والظرف والأدب والدعابة "مرضعة الكل". في عصر ميشال شيحا كانت الكلمة صنو الوطن، أو قبله. وقد غاب.

اندفع رفيق الحريري بكل قواه لكي يصبح شريكاً رئيسياً في سياسات لبنان والعرب. ظل يندفع، بحيويته وماله وعلاقاته العربية والدولية إلى أن اصطدم بالجدار الأخير. دفع موقع رئاسة الحكومة إلى أبعد وأقصى ما يمكن أن تسمح به الظروف والمعطيات.

سعد الحريري كان بعيداً عن العمل السياسي تماماً بقدر ما كان والده مشدوداً إليها. القدر، لا الرغبة، جعله ينفذ وصية لا علم له بها. رفيق الحريري كان في السيارة الى بعبدا عندما فهم من الراديو ان الحواجز سوف ترمى في طريقه، فاستدار وعاد الى قريطم ليعلن استقالته.

سعد الحريري أسير الوصية، يرى الحواجز ويتظاهر بأنها غير موجودة. لم يبق أحد إلا وشاركه في ما كُلف به. لم يبق أحد إلا وابلغه شروطه. كان يعتقد أنه يشكل حكومته، فرأى ان كل وزير في حجم دولة، وكل حقيبة في حجم وطن.

آخر مقابلة مع الرئيس رفيق الحريري قال لي: "لا أريد ديناستي. أنا استعد للتقاعد. لقد بلغت في السياسة أقصى ما أستطيع واكتفيت. وبهاء في جنيف لا يريد العودة. وسعد في المملكة يدير أشغال العائلة، ويعتبر السياسة هدراً ووجع رأس".

طوال عملية التأليف الأخيرة، كنت أفكر، بكل قلبي، في سعد الجريري وطيبته ومعدنه. وأتذكر، عندما أسأله عن مشاريعه، جوابه الدائم "اشتقت للعيلة والولاد. مش عم شوفون". اتخيل ماذا كان فعل "أبو حسام" في روضة الاطفال هذه لولا أسر الوصية. الخلق ثمنه ثقيل.